الفصل الأول

الجانب المهمَل من التاريخ

لم يكن الكثير من الناس حتى في هذا العصر الحديث من عصور التنوير يدركون عظم هذه الإسهامات التي قدمها العالم الإسلامي في تقدم البشرية، حيث كان لهذه الحضارة دورَ ريادة العالم في العلوم إلى جانب انطوائها على العنصر البشري الوحيد الذي كان منخرطًا بشكلٍ فاعلٍ وممنهجٍ في طلب العلم وذلك لمدة تربو على الخمسة قرون من الزمان.

وبدأ تأثير المسلمين يؤتي أُكُله على التعليم والعلوم التي أخذت في الازدهار مع الوقت الذي بزغ فين نجم الخلافة في بغداد في منتصف القرن الثامن عشر وُصُولاً إلى الفترة التي أفل فيها نجم الحضارة الإسلامية على الصعيد السياسي بعد ذلك بخمسة قرون، ولم تشهد أي بقعة من بقاع العالم المعاصر آنذاك مثل هذا النشاط؛ إذ أنه في هذه الفترة من تاريخ العالم كانت أنوار الحضارة الإغريقية الرومانية قد

خَبَت وكانت أوروبا تتجرع مرارة العيش في العصور الوسطى في حين أن الهند كانت تقبع في فترةٍ من الركود، أما بالنسبة للصين فإنها وإن ازدهرت في هذه الفترة في جانب الفنون إلا أنها كانت خاليةً البتة من أية علوم.

لم تكن هذه الحقائق المتناقضة معروفة بشكلٍ كبيرٍ لأسبابٍ عدة؛ منها أن المؤرخين صبُّوا جُل تركيزهم لفتراتٍ طويلةٍ من الزمان على قيام الإمبراطوريات وسقوطها وعلى الصراعات العسكرية بين الأمم جنبًا إلى جنبٍ مع توالي الأسر الحاكمة على سُدَّة الحكم؛ بيْد أنهم قد شرعوا مؤخرًا في تقفِّي آثار قيام الحضارة نفسها، وعلاوة على ذلك فإن الغرب قد عاش دربًا من حياة العزلة استمر فيها حتى وقتٍ متأخرٍ نسبيًّا إذ أنهم لم يُولُوا اهتمامهم لتاريخ وفنون وأديان الدول الشرقية إلا بعد عصر التنوير وقيام الثورة الفرنسية.

لقد أسهم الصراع المتأصل بين الإسلام والمسيحية في إيجاد حالة من الفتور - إن لم تكن حالة من العداء- بين الشرق والغرب، وتعتبر الحملات الصليبية خير دليلٍ على هذه العلاقة المحتدة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية، وحتى مطلع القرن التاسع عشر، بَدَا الأمر وكأن هناك حجابًا ضخمًا يعزل الحضارة الإسلامية عن نظيرتها المسيحية.

هذا وقد مثَّل عدم إتقان اللغة العربية عقبةً كبيرةً فى هذا المضمار إذ أنه حتى بداية القرن الحالي لم تتمكن إلا قلةً قليلةً من دارسي الغرب من قراءة اللغة العربية

ناهيك عن نقل معاني هذه اللغة الرصينة الجزلة إلى لغاتهم الغربية.

ليس الهدف من هذا الكتاب البكاء على الماضى الذى سطَّر وخطَّ تقييد الشعوب والحضارات إذ أنه بإمكاننا اليوم أن نسعد بأن كل بقعة من بقاع العالم شرقيةٍ كانت أو غربيةٍ بها علماء يتناولون التاريخ بنظرةٍ تتسم بالتجرد والشمولية، ويعتبر «جورج سارتون» أحد المؤرخين المحدثين الذين يعرفون حق المعرفة أن اللغة العربية من الأهمية بمكانٍ في دراسة تاريخ العالم.

وتجدر الإشارة إلى أن «سارتون» كان قد فر من بلجيكا طالبًا اللجوء إبان الحرب العالمية الأولى حيث وجد فرصة للدراسة في جامعة هارفارد والتي استمر في أحضانها لعدة سنوات قام فيها بإجراء عددٍ من الدراسات القيمة حول الاستشراق إلى جانب عمله رئيسًا لتحرير مجلة «إيزيس»، ويعود الفضل إلى كتابه المعنون بـ «مقدمة لتاريخ العلم» في تغيير مجرى التاريخ إذ أنه الأول من نوعه الذي يسلط الضوء على فضل الحضارة العربية الإسلامية وعلى إسهاماتها التي كان لها نصيبًا ووزنًا في قيام الحضارة، وإلى جانب «سارتون» فإننا ندين بالفضل الكبير أيضًا إلى «فيليب خورى حيتي» أستاذ الأدب السامي بجامعة برينستون (فى أمريكا) والذي يعتبر كتابه المعنون «تاريخ العرب» كنزًا مليئًا بالمعلومات عن الحضارة العربية في الشرق الأوسط وأسبانيا.

وتجد قصة الحضارة نفسها إلى مدى بعيدٍ متبلورة وجلية في أعمال علماء

الأنثروبولوجيا الذين يُولون النصيب الأكبر من دراستهم للبشر فضلاً عن الدول إذ أن الإنسان قد بلغ الجد كي يفيق من غياهب الظلمة التي كابدها في حياة الكهوف على فجر عصر الفضاء.

ويتبين من خلال «سرد علماء الأنثروبولوجيا» لقصة الإنسان أن هذه الحقبة من الزمن التي علا فيها نجم الحضارة العربية الإسلامية تمثل فصلا في غاية الأهمية في هذه القصة؛ كونها واحدة من أفضل حقبات العالم العلمية الثلاث حيث وقفت في منتصف الطريق وكانت همزة الوصل للربط بين العلوم البدائية للإغريق وميلاد عصر العلم الحديث والتكنولوجيا.

لقد كان قيام الحكم الإسلامي مُفعما بالإثارة تمامًا كما كان حال انحطاطه لدرجة أن الخليفة «عبد الله»، على إثر تخليه عن غرناطة للغزاة الأسبان في عام 1492 قد «بكى مثل النساء على مُلك لم يدافعْ عنه كالرجال.»

والسؤال الذي يلح علينا بشدة الآن هو «كيف سُلِّمت تلك الحضارة التي كان نورها آخذاً في الخبوت مشعل التنوير العلمي لأوروبا والذي ما لبثت الدول المسيحية أن توهجت من جرائه؟ وما هي الطرق التي سلكها العالم الغربي حتى يحوز هذا المعرفة المتراكمة من العصور السابقة والتي أرسَتْ عليها أوروبا قواعد تقدمها؟ وهنا نجد حلقة ساحرة في دراما تلك الحضارة.